

شعاع من نور الوحي

القرآن الكريم كتاب هداية ورحمة

آية الله العظمى

السيد عبد الكريم الأردبيلي (دام ظله)

دار السيدة رقية للقرآن الكريم


بسم الله الرحمن الرحيم



القرآن الكريم

كتاب هداية ورحمة

شعاع من نور الوحي

القرآن الكريم

كتاب هداية ورحمة

آية الله العظمى السيد عبد الكريم الموسوي الأردبيلي

دار السيدة رقية للقرآن الكريم



تأسست عام ١٤٢٧ هجري

دار السيدة رقية للقرآن الكريم

اسم الكتاب: .... القرآن الكريم كتاب هداية ورحمة

تأليف: .... آية الله العظمى السيد عبدالكريم الموسوي الأردبيلي

الناشر: .... مؤسسة السيدة المعصومة عليها السلام

اصدار: .... دار السيدة رقية عليها السلام للقرآن الكريم

مطبعة: .... ثامن الحجج عليه السلام

الطبعة الاولى: .... ١٤٣٦هـ . ٢٠١٤م

الكمية: ٢٠٠٠

شابک: ٣-٢٤٩-٩٨٤-٩٦٤-٩٧٨

الجمهورية الإسلامية الإيرانية ـ قم المقدسة

www.qazvini.org
Email: info@ruqayah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾[5].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[6].

---

١. سورة النحل / ١٠٣.

٢. سورة مريم / ٩٧.

٣. سورة إبراهيم / ٤.

٤. سورة الحشر / ٧.

٥. سورة فصلت / ٣٠.

٦. سورة الرعد / ٢٨.

إنَّ القرآن الكريم من أعظم المنح الإلهيّة التي أرسلها ربُّ العباد لهداية الإنس والجنِّ بشكل عام، والإنسان منهما بشكل خاص.

ومع أنّ هذا الكتاب المقدّس إنّما أُنزل لبيان الأحكام الشرعيّة والمسائل الأخلاقيّة والاجتماعيّة و... لكن الهدف الأساس منه، والغاية القصوى له هو ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[1].

وهل إنَّ هذه الهداية مختصّة بالمسلمين فحسب كما في قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2]، أو أنّها تشمل غيرهم؟

الجواب: كلا، بل هي عامّة لهداية جميع الناس، وهذا ما يتجسّد بكلِّ وضوح في قوله سبحانه وتعالى حينما وصف هذا الكتاب: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[3].

فمن خلال استخدام مفردة ﴿لِلنَّاسِ﴾ يتبين لنا أنَّ القرآن الكريم هو كتاب هداية لجميع البشر، وكلٌّ واحد منهم بإمكانه أن يغرف من هذه العين الصافية والمعين الذي لا ينضب بحسب إناء وجوده وقدرته.

---

١. سورة إبراهيم / ١.

٢. سورة النحل / ١٠٢.

٣. سورة البقرة / ١٨٥.

عن أبي عبد الله عن آبائه عليهم السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**إذا الْتَبَسَتْ عَلَيْكُمُ الفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرآنِ؛ فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ**». فكما أنّ النبيَّ الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام شفعاؤنا يوم القيامة، ومنار دروبنا في هذه الدنيا يخرجوننا من التيه والضلال، فكذلك القرآن الكريم؛ «**فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ... مَن جعلَهُ أمامَه قادَهُ إلى الجنَّة، ومَن جعلَهُ خلفَهُ ساقه إلى النّارِ**»[1]، وهذا تجسيد لقوله تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً**﴾[2].

«وهو كتابٌ فيه تفصيلٌ، وبيانٌ وتحصيلٌ، وهو الفصلُ ليس بالهزلِ»

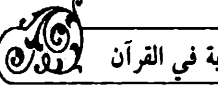
نعم إنّه الكتاب الإلهي الذي أخبر بدقائق الأحداث والأحكام وشرع في بيانها وتفصيلها؛ حيث تكفّل ببيان كلِّ شيء يحتاجه الإنسان عِبر سيره التكاملي ومسيرته في هذه الدنيا، قال تعالى﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾[3].

---

١ . الجدير بالذكر أنّ مفردة (أمامه) يمكن أنّ تُقرأ أيضاً (إمامه)، وكلاهما صحيحان، ولكن بما أنّها جاءت مع (ومَن جعله خلفَه) فالأولى أن تُقرأ (أمامه) التى هى فى قِبال الخلف.

٢. سورة الإسراء / ٨٢

٣. سورة النتحل/٨٩



وهو الفاصل والمائز بين الحقّ والباطل، والفيصل الذي أُنزل على قلب رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ليأخذ بيد هذا الإنسان ويصل به إلى أعلى مراتب السمو والرفعة، بل إلى ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أو أَدْنَى﴾ من الرُّقي والكمال.

«له ظهرٌ وبطنٌ»، أي أنَّ ما نفهمه من معانٍ سامية أو تفسير للآيات فهو في الحقيقة ظاهر لها، وإنّما هناك معانٍ أُخرى تكمن في الباطن، وهو التأويل الذي لا يعرفه إلاّ الله والراسخون في العلم؛ قال تعالى:﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[1] «فظاهرُهُ حكمٌ وباطنُهُ علمٌ».

«له نجومٌ، وعلى نجومِه نجومٌ»، فكما أنَّ نجوم السماء تشعّ في السُّرى نوراً وتألقاً؛ ليهتدي بها السائرون والضالون عن الطريق، وينجو بها الإنسان من ظلمات البرِّ والبحر المهولة والمخوفة ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[2]، فكذلك القرآن الكريم له نجوم يهتدي بها البشر من ظُلمة الزيغ والجهالة، وحيرة التيه والضلالة.

يقول العلامة المجلسي قُدِّسَ سِرُّهُ في شرح هذه الفقرة من الحديث: «لعل المراد له نجوم أي آيات تدل على أحكام الله تهتدى بها وفيه آيات تدل

---

١ . سورة آل عمران/٧.

٢ . سورة الأنعام / ٩٧.

على هذه الآيات وتوضحها أو المراد بالنجوم الثالث السنة فإن السنة توضح القرآن أو الأئمة عليهم السلام العالمون بالقرآن أو المعجزات فإنها تدل على حقيقة الآيات لمن عرف الصفة أي الصفات التي توجب المغفرة من القرآن أو صفة التعرف والاستنباط»[١]

خصائص القرآن الكريم

للقرآن الكريم خمسَ عشرةَ خصلةً فريدة يمتاز بها عن سائر الكتب والمؤلَّفات، وهذا لا يعني انحصاره فقط في هذه الخصال التي سنشير إليها، بل قد تكون هناك خصال وسمات أضعاف ما سنذكره ونبيّنه، ولكن ما خطر على بالنا سنعرضه على القارئ الكريم بإيجاز يتناسب مع هذا البحث المقتضب:

١. العذوبة والحداثة

إنَّ القرآن الكريم كتاب عتيد قد دُوّن وأُنزل قبل أكثر من ١٤٠٠ عام، لكنّ عذوبته ونقاوته وطراوته ما زالت على حالتها الأولى إذا لم تكن

---

١. مرآة العقول ١٢ / ٤٧٩.



تعدّتها وتجاوزتها، بل نحن لا نعلم كتاباً مرَّ عليه أكثر من ثلاثين أو أربعين عاماً وبقي محافظاً على طراوته وحداثته، وقد شهد بهذه الصفة فصحاء وبلغاء العرب في عصر النبيﷺ، حيث قال الوليد بن مغيرة لما مر وسمع النبي ﷺ يتلوا سورة حم السجدة: **«فأتى قومه وقال: قد سمعت من محمد ﷺ آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس والجن، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى، فقال قريش: صبأ الوليد، فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقعد إليه حزينا وكلمه بما أحماه فقام فناداهم فقال: تزعمون أن محمدا ﷺ مجنون فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون: إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا؟ فقالوا: لا، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه؟ ففرحوا به وتفرقوا مستعجبين منه »**[1].

لقد كانت التوراة والإنجيل من الكتب السماويّة القديمة التي نزلت قبل القرآن بمئات السنين، لكنها لم تكن مورد عناية واهتمامٍ كالقرآن الكريم؛

---

١ . بحار الأنوار، ج٩، ص١٦٨.

لأنَّ اليهود والمسيح أنفسَهم لا يعتبرونهما كتابَين لهداية أفكارهم وآرائهم، أو أنموذجاً حيّاً يتواكب مع برامجهم العلمية والعمليّة.

أمّا المسلمون فإنّهم يجدون القرآن الكريم حاضراً معهم في جميع مجالات حياتهم اليوميّة، يستلهمون منه فنونَهم وتجاربَهم وإبداعاتِهم، ويتبركون به في أفراحهم وأحزانهم، وأعراسهم ووفياتهم، ويتفاءلون به عند السفر وطلب الحاجة، والبيع والشراء، ويختارون أسماءَ أبنائهم وأطفالهم من خلال التمعّن به والتدبّر فيه؛ لأنّهم لا يعرفون كتاباً له هذه المِيزة والخصوصيّة كالقرآن الكريم.

إذاً لكلِّ كتاب ـ سوى القرآن الكريم ـ فترة زمنيّة ينتهي أمده وأثره بانتهائها؛ لأنَّ «الأمور مرهونة بأوقاتها» كما يُقال. وهذا الأمر غيرُ مختصٍّ بما يُكتب ويُدوّن فحسب، بل نجده حتّى على مستوى الأناشيد والأشعار، فمثلاً: إنَّ القصائد والأشعار الحماسيّة في أوائل انتصار الثورة الإسلاميّة الإيرانيّة كان لها أثر واضح في حينها، لكنها في الوقت الحاضر قد فقدت ذلك الأثر والعطاء، وكذا الحال في بعض القصائد والأناشيد الدينيّة التي كان لها أثر ما في حقبة زمنيّة معيّنة فقدته بعد تلك الفترة من الزمن.

يُذكر أنَّ الشيخ محمد علي الباب كان له كتاب يسمى «البيان»، وقد بحثت كثيراً عن النسخة العربية لهذا الكتاب فلم أجدها، وحينما كنتُ أسأل أيَّ

بهائي أجده عن هذه النسخة كان يقول لي: إنّها غير موجودة. فقلت في نفسي: لم يمر على موت الشيخ محمد علي الباب سوى ٢٠٠ ـ ٣٠٠ عام، فلماذا أصبح كتابه نادراً هكذا؟! ثمَّ سمعت بعد فترة منهم أنّه حتّى لو وجد الكتاب فإنّه لا يكون حجّةً في هذا اليوم؛ لأنّه غير مختوم بالختم المخصوص.

وبعد فترة عثرت على نسخة واحدة من هذا الكتاب، وهي الآن موجودة في مكتبة جامعة الشيخ المفيد ﭪ، ولكنّها غير مختومة بالختم المخصوص، شأنُها شأنُ الكتب الدينيّة الأُخرى الخالية من تواقيع أصحابها وأختامهم.

والجدير بالذكر أنَّ القرآن الكريم لم يكن مهجوراً أو في منأى عن المسلمين على طول التاريخ الإسلامي؛ حيث لم نسمع ولم نقرأ أنَّ هؤلاء المسلمين في فترة ما، كأن تكون ٥٠ أو ١٠٠ عام، قد طرحوا فيها القرآن جانباً واعتزلوه، أو وضعوه في متاحفهم ومكتباتهم الأثريّة ولم يرجعوا إليه، بل إنّنا نجدهم يتعاهدون حفظه ويتداولونه، ويلتزمون بتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وإذا ما جهلوا منه شيئاً كانوا يسألون عنه رسول الله ﷺ، أو الأئمة المعصومين عليهم السلام من بعده، أو يسألون بعض الصحابة

والتابعين ممّن له باعٌ في معرفته وتفسيره، ومن ثَمَّ يعملون به ويصحّحون أفكارهم ورؤاهم على ذلك.

٢. تعدد التفاسير والمفسّرين

إنَّ الميزة الثانية في القرآن الكريم هي أنَّه منذ الأيام الأُولى لنزوله شُرِع في تفسيره وبيانه، حيث كان المسلمون يسألون النبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه، أو الإمام عليّاً عليه السلام، أو ابن عباس، أو أحد الصحابة أو التابعين من بعدهم عن معنى الآيات ومضامينها، وهؤلاء كانوا يفسّرون لهم ما أُشكل عليهم.

وقد حفظ البعض هذه الأسئلة والأجوبة كروايات ونقلوها للناس جيلاً بعد جيل، فأصبحت فيما بعد تفاسيراً روائيّة مأثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام. ومن ذلك الحين دُوّنت عدّة تفاسير تتناسب وتلك الفترة، لذلك نرى أنَّ هناك حيويّةً وطراوةً وحداثةً بقيت ملازمة لهذا الكتاب ومستمرة معه إلى يومنا الحاضر، وستبقى هكذا معه إلى نهاية هذا العالَم.

والجدير بالذكر أنّ هذه التفاسير لم تكن بالية أو مكررة، ولم تكن يوماً يعتمد فيها التفسير اللاحق على السابق إلاّ في مجالات قليلة جداً تقتضيها ظروف هذا الفنِّ، بل لكلِّ تفسير منها إبداعٌ مختصٌّ به، الأمر الذي دفع الكثير من العلماء والمفكّرين والمفسرين في زماننا هذا إلى التأليف والكتابة

في علوم القرآن الكريم وتفسيره، وهذه الكتابة تتناسب والمواضيع الجديدة التي تظهر بين الفَيْنة والأُخرى لهذا الكتاب المقدّس.

وعليه يمكن لنا القول: إنَّه لا يوجد في هذا العالم كتابٌ ديني أو غير ديني له شروح وتفاسير بهذه الكثرة كالقرآن الكريم، بل حتّى التوراة والإنجيل مع أنّهما أقدم بكثير من القرآن لكن لا يوجد لهما تفاسير وشروح كما هو موجود للقرآن الكريم.

أنا بالذات سألت بعض علماء اليهود والنصارى عن تفاسير وشروح لكتبهم وأسفارهم، وهل إنَّهم يهتمون بذلك أو لا؟ فقالوا لي: لا أبداً.

إنّ العلماء والمفكّرين المسلمين سواء كانوا من الشيعة أم السُّنة، وعلى مرِّ العصور، قد كتبوا الكثير من التفاسير المختلفة لكتاب الله العزيز، وكلٌّ بحسب طريقته وأُسلوبه وتخصّصه.

مثلاً: من مدرسة أهل البيت عليهم السلام ألّف الشيخ الطوسي قدس سره المعروف بسعة علمه ومعارفه، وغزارة إنتاجه وتراثه، موسوعتَه التفسيريّة المعروفة بـ «التبيان»؛ بحيث نُقل عن الشيخ البروجردي قدس سره قوله: إنَّ الشيخ الطوسي رحمه الله إذا قسّمنا سنين عمره العلميّة على نتاجه العلمي فسوف يتّضح لنا بإنّه رحمه الله قد خصّص لكلِّ مسألة علميّة خمس دقائق فقط.

وكذلك الشيخ الطبرسي صاحب «مجمع البيان» و«جوامع الجامع»، والعلاّمة السيد الطباطبائي صاحب «تفسير الميزان»، وغيرهم الكثير من المتأخرين والمعاصرين.

أمّا علماء مدرسة الصحابة فقد ألّفوا أيضاً في هذا المجال الكثير من الموسوعات، وإذا كان لديهم علماء كبار ومؤلّفون فإنّ أفضل أعمالهم العلميّة هي تفاسيرهم.

طبعاً ليس علماؤهم الحوزويّون فقط هم الذين كتبوا في علم التفسير، بل يوجد منهم علماء متخصّصون في علوم الفيزياء والكيمياء والعلوم الحديثة قد كتبوا في تفسير القرآن الكريم كما هو الحال عند الشيخ الطنطاوي صاحب تفسير «الجواهر».

٣. الاسلوب الرائع

من القضايا البديهيّة والمُسلَّم فيها أنّ اُسلوب كتابة القرآن اُسلوب نادر وفريد، بل لم يكتب أحد من قبلُ مثله ولن يستطيع أن يكتب مثله في المستقبل. وكما هو معروف أنّ الكتب والمؤلّفات تتأثر عادة بأُسلوب تلك الفترة الزمنيّة الخاصة بها.

مثلاً: إذا أخذنا الكتب التي اُلّفت في فترة الدولة القاجاريّة فإنّنا نجد لها نمطاً خاصّاً يختلف تماماً عن النمط الذي اُلّفت فيه الكتب في فترة

الدولة الصفويّة. وهذا الأمر ينجرّ أيضاً على الكتب الفقهيّة المؤلّفة في عهدين مختلفين كما هو الحال في كتابَي «المبسوط» و «الخلاف» للشيخ الطوسي قدس سره؛ فإنّهما قد كتبا بأُسلوب خاص وطريقة معيّنة، وأمّا الكتب الفقهيّة المعاصرة فلها أُسلوب آخر يختلف عنهما اختلافاً شاسعاً إن لم يكن مبايناً.

إذاً كلُّ مؤلِّف يسعى جاهداً ليكتب على غرار الفترة الزمنيّة التي يعيشها ويحياها، ويراعي الطريقة والنمط والأُسلوب الخاص بتلك الفترة.

أتذكر عندما حصلت على كتاب «نقطة الكاف» للميرزا جاني الكاشاني رأيت مقدمة الكتاب التي كتبها (إدوارد براون)، فقد كتبها بالنمط الخاص بفترة الدولة القاجاريّة، والتي يقول في مقدمتها: «الحمد لله ربٍّ العالمين والصلاة والسّلام على جميع الأنبياء والمرسلين. أمّا بعد، كذا وكذا...».

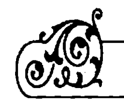
إنَّ هذه الطريقة كانت تُراعى في تلك الفترة، لذلك نرى (إدوارد براون) حينما كتب المقدمة كتبها على غرار تلك الحقبة الزمنيّة المعيّنة.

أمّا القرآن الكريم، فمع أنّه كتاب ديني ودستور للحياة، وقد كانت هناك كتب دينيّة أُخرى نزلت قبله كالتوراة والإنجيل، إلاّ أنّه لم يدوّن على غرار تلك الكتب، بل إنَّ أُسلوبه رائع ومنقطع النظير؛ فلا يوجد فيه مقطع

أو قسم أو باب، وليس فيه الفصل الأول والثاني والثالث، وإنّما قُسّم على السورة والآية. طبعاً كانوا في الماضي لا يكتبون حتّى السورة والآية؛ لأنّهم كانوا يعتقدون بكتابة ما أُوحي لرسول الله ﷺ وحسب.

وكيف كان فمن حيث عرض المطالب والموضوعات فإنّ للقرآن الكريم أُسلوباً رائعاً وطريقة فريدة، ومن حيث طرح المسائل فإنّ مسائله كثيرة ومتنوعة لا يمكن حصرها في موضوع خاص؛ ففيه من العلوم والأفكار ما لا تُعدّ وتحصى لكنّه ليس كتاباً فلسفيّاً، فيه الكثير من المسائل الأخلاقيّة لكنّه ليس كتاباً أخلاقيّاً، فيه المواعظ والنصائح لكنّه ليس كالكتب الوعظيّة، فيه القصص والحكايات لكنّه ليس كالكتب القصصيّة، فيه أحداث التاريخ وأخباره لكنّه ليس كالكتب التاريخيّة، فيه أحكام وقوانين متعددة لكنّه ليس كتاباً فقهيّاً ولا كتابَ محاماة، فيه أدعية الأنبياء عليهم السلام وعامّة الناس لكنّه ليس كتاب دعاء، فيه الكثير من المطالب العلميّة والاجتماعيّة لكنّه ليس كتاباً علميّاً.

ولم يتوقف القرآن الكريم عند هذا الحدّ، بل نجده قد اتّسم بسمات أُخرى لم نجدها في سائر الكتب السماويّة، فقد حُكي عن لسان الكثير من الخلق؛ كالملائكة والشياطين، الجنّ والإنس، الكافر والمؤمن، الأشجار والنباتات، الليل والنّهار، الجنّة والنار، الحيوانات والسحاب،



الشمس والقمر، النجوم والكواكب... إلخ، فنجده في مكان يقول: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾[١]، وفي مكان آخر يقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾[٢] أو ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾[٣].

إذاً القرآن الكريم قد تحدّث عن لسان الجميع، وعليه فهل هو كتابُ شعرٍ أو كتابٌ قصصي أو كتابٌ علمي؟

الجواب: كلا هو ليس كذلك، فنحن عندما نقرأ القرآن على أديب ما فسوف يذهل ويندهش؛ لأنّ طريقة القرآن طريقة رائعة، وأُسلوبه أُسلوباً رقيقاً يأخذ بمجامع القلوب والأفكار. بالطبع ربما يوجد الكثير من الكتب التي تحدّثت عن لسان الحيوانات أو أشياء أُخرى ممّا ذكرنا، لكننا حينما نقايس أُسلوب القرآن ونمطه مع تلك الكتب فسوف نرى الفرق الشاسع بينهما.

---

١. سورة النمل / ١٨.

٢. سورة الجمعة / ٥.

٣. سورة الأعراف / ١٧٦.

٤. كتاب هداية

لقد ذكرنا آنفاً أهمَّ خصائص القرآن الكريم وميزاته وسماته، وأنّه ليس لها شبيه أو مثيل في جميع الكتب والمؤلّفات البشريّة.

وهنا قد يُطرح هذا السؤال: إذاً ما هو القرآن؟

الجواب: إذا أردنا أن نصف القرآن الكريم في جملة واحدة فإنّنا نقول: إنَّ القرآن كتاب هداية. القرآن من أوّل آية فيه إلى آخر آية منه يقول شيئاً واحداً، وهو: إنَّ الحياة فيها طريقان لا ثالث لهما؛ أحدهما الصراط المستقيم، والثاني صراط الضلالة والتيه.

إذاً كلُّ ما جاء في القرآن الكريم إنّما كان يتحدث عن هذين الطريقين؛ لذلك نرى في سورة الحمد التي تعتبر من أهم السور القرآنيّة أنَّ الله سبحانه وتعالى يأمرنا أن نقول ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1]، وفي سورة الزخرف نجده سبحانه يخاطب رسوله الكريم صلى الله عليه وآله ويقول له: ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2].

---

١. سورة الحمد / ٦.

٢. سورة الزخرف / ٤٣.

وفي هذه الآية الأخيرة جعل القرآن الكريم خصوصيّة متميزة للرسول الأكرم ﷺ، وهي كونه على صراط مستقيم، وعليه فالإنسان إذا ما استطاع أن يسير في هذا الطريق فإنّه في الواقع يسير على طريق الأنبياء والمرسلين؛ لأنَّ الامتثال لأوامر القرآن الكريم هو الصراط المستقيم بعينه، والعمل بنواهيه وعدم الاجتناب عنها هو الخروج عن هذا الصراط.

يُذكر أنَّ السيد قطب حينما ألّف كتابه وسماه «في ظلال القرآن»، علّق عن سبب انتخابه لهذا الاسم، فقال: إنَّ انتخاب هذا العنوان لكتابي لم يكن بالأمر الصعب؛ لأنّها هي الحقيقة التي تعايشت معها.

لقد رأيت المرحوم (أحمد آرام) مرة فسألته عن أفضل كتبه ومؤلّفاته، فأجابني: ترجمة كتاب «في ظلال القرآن» للسيد قطب. فتعجّبت من جوابه، وسألته مرة أُخرى: إنّ لديكم مؤلّفاتٍ كثيرة (تأليف وترجمة) في علوم التاريخ والفلسفة والعلوم الأُخرى، فلماذا ترجمة «في ظلال القرآن» بالذات؟ فأجابني بأنَّ المهندس (بازرگان) قال لي: إنَّ تاريخ العلوم يُعتبر من أفضل الكتب الحديثة، لكنه يعتقد بأنّ ترجمة كتاب «في ظلال القرآن» من أفضل مؤلّفاتي. فقلت له: إذاً لماذا لم تستمر بترجمته، ولم تترجم منه سوى عشرة أجزاء؟! قال: لأنّي اشترطت على الناشر أن يبيع الكتاب بسعر التكلفة مع أنّي لم آخذ منه حقَّ الترجمة

لهذا المؤلَّف، لكنه لم يفِ بهذا الشرط وباع الكتاب بأضعاف تكلفته، فأحسست أنَّ القرآن الكريم وتفسيره قد أصبحا أداة لمتاع الدنيا؛ لذلك لم أستمر.

وهنا قد يُطرح هذا التساؤل، وهو: إذا كان القرآن كتاب هداية، فلماذا يكون سبباً للفرقة والاختلاف؛ حيث نجد أنَّ الشيعة يفهمون منه شيئاً، والسُّنة يفهمون منه شيئاً آخر؟

هذه الأُمور قد طرحها السيد الطباطبائيقُدِّسَ سِرُّهُ في تفسير الميزان، وقد أجاب عنها مفصلاً. وخلاصة ما قاله العلاّمة: إنّ القرآن الكريم هو كتاب هداية في شروط خاصة وظروف معيّنة، والقول بأنَّ القرآن كتاب هداية لا يعني هذا بأنَّ كلَّ مَن فتح القرآن وقرأه سوف يهتدي ولن يضل أبداً؛ لأنَّ عبد الرحمن بن ملجم وعمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن كانوا يقرؤون القرآن أيضاً إلاّ أنّهم لم يكونوا مهتدين.

الهداية في القرآن تعني أنَّ مَن أراد أن يهتدي ويسلك الطريق الصحيح فسوف يكون القرآن الكريم له هادياً ومرشداً، لذا يجب على الفرد أوّلاً أن يكون طالباً للهداية، وبعد ذلك يرجع للقرآن لكي يرشده إلى طريقها وسبيلها.



لقد ثبت عبر التاريخ الإسلامي أنّ أتباع القرآن الكريم والذين كانوا يلتزمونه ويعيشون في ظلّه قد اهتدوا ونجوا، ونحن أيضاً خلال هذه الفترة من حياتنا رأينا أنَّ أتباع القرآن قد كانت عاقبة أمرهم خيراً، وهذا بخلاف الذين كانوا في منأى ومعزل عنه؛ حيث كانوا يعانون الكثير من المشاكل والاضطرابات النفسيّة في حياتهم.

إذاً الهداية في القرآن الكريم لا تعني أنَّ مَن يحمل القرآن معه لا بدّ أن يكون مهتدياً، أو مَن يقرأه ويطلّع على تفسيره يكون في مأمن من الغواية والضلالة، بل على الإنسان أن يكون باحثاً عن الهداية مهما أمكن، ساعياً إلى تحقيقها بالسبل الناجعة والصحيحة.

٥. خليط ومزيج

المقصود من هذه الخصّيصة أنَّ محتويات القرآن الكريم جميعاً عبارة عن مزيج وخليط متجانس وغير متجانس، فحينما نقرأ سورة البقرة مثلاً فسوف نجد أنّها تتحدث عن مسائل كثيرة ومتنوعة، فهي تتحدث عن الإنسان وخَلْقِهِ، عن بني إسرائيل، عن تغيير القبلة و...، وهذا الأسلوب في الكتابة مختصٌ بالقرآن وحده.

في القرن الماضي أراد العالم الفرنسي (جول لابوم)[١] أن ينظّم القرآن الكريم ويصنّف آياته حسب مواضيعها، فيفرز: آيات القيامة، آيات التوحيد، آيات الأحكام، آيات الأدعية، الآيات التي تتحدث عن قصص الأنبياء والمرسلين... إلخ، فجزّأها بشكل منتظم وبوّبها وطبعها.

أنا اشتريت هذا الكتاب، ولكن بعد فترة وجيزة ندمت على شرائي واقتنائي له؛ لأنّي رأيت النُّظم والترتيب الموجود في قرآننا غيرَ موجود في هذا الكتاب.

نحن عندما نقرأ سورة البقرة نفهم منها مواضيع مختلفة، لكن حينما نرجع إلى كتاب (جول لابوم) لا يمكننا استخراج مواضيع متعددة منه؛ لأنَّ خصوصيّة القرآن تكمن في كونه مزيجاً وخليطاً بالمعلومات والمفاهيم المختلفة، وهذه الخصوصيّة فريدة فيه دون غيره.

---

١ . مستشرق فرنسي (١٨٧٦ ـ ١٩٠٦م) قام بتصنيف الآيات القرآنيّة إلى ثمانية عشر موضوعاً، حيث نُشر فى مصر تحت عنوان «تفصيل آيات القرآن الكريم»، وقد تُرجم إلى اللغة الفارسيّة أيضاً.

٦ـ٧. التحدي والإعجاز الأدبي

لقد أعلن القرآن الكريم مراراً وتكراراً بأنّه فريد ولا يوجد مَن يضاهيه ويماثله، ومَن يقول غير هذا فليأتي بسورة واحدة من مثله، ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[1]، و﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2] و﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3].

إنَّ العرب في تلك الفترة كانوا في غاية البلاغة والفصاحة، وكانت أشعارهم وقصائدهم، وخطبهم ورسائلهم شاهدة على ذلك، بحيث كان فحول الشعراء منهم أمثال: امرئ القيس، وطرفة بن العبد، وزهير بن أبي سلمى... إلخ ينشدون قصائدهم في سوق عكاظ ثمَّ يعلّقونها على جدران الكعبة حتّى عُرفت بالمعلّقات السبعة أو العشرة.

---

١. سورة الإسراء / ٨٨

٢. سورة هود/ ١٣.

٣. سورة البقرة / ٢٣.

في تلك الفترة لم تكن هناك إذاعة ولا تلفاز ولا أيُّ وسيلة مادّيّة تكشف للناس مواهب الشعراء وقابلياتهم، وإنّما كان إعلامهم الوحيد هو لسان الشاعر نفسه، أو كتابة الشعر بخط جميل وتعليقه على جدران الكعبة.

بعد مجيء الإسلام بقيت هذه المعلّقات على حالها يقرؤها كلُّ مَن دخل مكّة وطاف حول بيتها، وحينما نزلت هذه الآية ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1]، وسمعها كبار الشعراء لا سيما المخضرمون استحوا وترك البعض منهم الشعر أمثال لبيد بن أبي ربيعة، ويئسوا من الإتيان بمثل هكذا بيان.

في أيام شبابي كنت أعمل في مجلة «مكتب إسلام»، وقد اتفقت مع زملائي آنذاك أن نكتب مقالات قرآنيّة. قلتُ في نفسي: إنَّ المقالة القرآنيّة صعبة جداً فماذا أكتب؟! مرّت أيام وليالٍ ولم يخطر في بالي أيُّ شيء، وقد قرب موعد النشرة، فقال لي بعض الزملاء: ائتنا بمقالتك. فقلت: بصراحة لم يخطر في بالي أيُّ موضوع، فأنا بإمكاني أن أكتب مقالة أخلاقيّة أو فقهيّة أو رجاليّة، لكنَّ المقالة القرآنيّة أراها صعبة ولا

---

١. سورة هود / ٤٤

أعرف ماذا أكتب. فألحّوا عليَّ وقالوا: إنّك قبلت أن تكتب مقالة قرآنيّة، ولا بدَّ أن تفي بوعدك.

وفي يوم من الأيام، وكان يوم جمعة، قلت في نفسي: يا إلهي، أعنّي على ذلك. فقرّرت أن أفتح القرآن الكريم وأنتخب موضوعاً منه، ولمّا فتحته كانت هذه الآية ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[١]، فاستعنت بالله تعالى وبدأت أكتب مقالة حول هذه الآية، وقد سمّيتها «القرآن الشمس التي لا تغيب».

وصادف في تلك الفترة أنَّ السيد موسى الصدر كان متواجداً في إيران، وكان يتعاون مع مجلة «مكتب القرآن». وحينما كنت مستمراً في كتابة مقالتي هذه زارني السيد يوماً في بيتي، فقلت له: لقد طلب زملائي في المجلة أن أكتب مقالة حول القرآن، ولمّا فتحت القرآن الكريم كانت هذه الآية، وأنا الآن متفرغ لكتابة مقالة حولها. فقال لي السيد: لو أردتُ أن أكتب بحثاً قرآنيّاً فسأكتبُ حول هذه الآية.

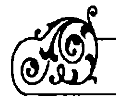
---

١. سورة الإسراء / ٨٨

لقد كان لكلامه هذا وقعٌ مهمٌ في نفسي، فأتممت هذه المقالة بكلِّ ثقة وعزيمة، ثمَّ نشرتها في العدد الأول من المجلة، وقد انهالت علينا الرسائل فيما بعد أن استمروا في هذا البحث القيّم.

يعتقد البعض أنَّ الأُدباء والشعراء والبلغاء كان بإمكانهم أن يأتوا بشيء يُشبه القرآن الكريم، لكن الله سبحانه وتعالى يحول بين ذلك ويصرفهم عنه كلّما حاولوا أن يجاروا في أقوالهم القرآنَ ويشابهوه. وقد أطلقوا على هذه الحالة اسم «الصرفة».

وبصراحة أنا لا أعتقد بهذه «الصرفة»؛ لأنَّ أُسلوب القرآن الكريم إعجازي ولا يمكن لأحد أن يأتي بمثله؛ فقد حاول بعض المشركين وأعوانهم أن يأتوا بآيات تُشبه آيات القرآن لكنهم لم يستطيعوا ولم يأتوا إلاّ بالتُّرهات والهراء، كقول بعضهم: الفيلُ ما الفيلُ، له خرطومٌ طويلٌ... !!



٨. عدم وجود التناقض والتضاد بين الآيات القرآنية

لقد نزل القرآن الكريم طوال ثلاثةٍ وعشرين عاماً، فأيُّ كاتب يمكنه أن يؤلّف كتاباً خلال هذه الفترة ولم تجد له أيَّ تناقض في طيات كتابه؟! ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾[1].

يقول الشيخ ابن طاووس قدس سره: إذا أردتم أن تختبروا أنفسكم فعليكم أن تكتبوا رسالة إلى صديق ما ولكن لا ترسلوها له، وبعد فترة افتحوا هذه الرسالة واقرؤوها، فبالتأكيد سوف تغيّرون في أُسلوبها ومتنها وتعابيرها.

إذاً لا يمكن للإنسان أن يكتب كتاباً ثمَّ لا يعيد النظر فيه بعد فترة من الزمن؛ لأنّه كلّما راجعه وقرأه ودقّق فيه فسيرى أنّه بحاجة إلى تصحيح وإعادة نظر، وهذا بخلاف القرآن الكريم، فهو على الرغم من نزوله التدريجي إلاّ أنّه لم تُجرَ عليه أيّةُ تصحيحات أو تعديلات، ولم يُرَ فيه أيُّ تناقض أو تضاد.

وعليه فكما أنَّ كتاب التكوين الإلهي لا يوجد فيه أيُّ نقص أو تفاوت، فكذلك في كتاب التشريع الإلهي لا يوجد أيُّ تضاد أو

---

١. سورة النساء / ٨٢

تناقض، ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾[1].

٩. غير قابل للتحريف

إنَّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام لا تعتقد بتحريف القرآن مطلقاً، لا التحريف في زيادته ولا في نقصانه، لكنَّ بعضاً من مدرسة الصحابة يقولون بالتحريف النقصاني، ويصطلحون عليه بـ«منسوخ التلاوة».

يقول السيد الطباطبائي قدس سره: إنَّ الآيات الناسخة تشير دائماً إلى الآيات المنسوخة، وإذا كانت هناك آية منسوخة وحكمها جارٍ فيجب أن تُذكر في آيات أُخرى. إنَّ السيد الطباطبائي نفسه يقول: لا يوجد في القرآن الكريم تحريف التلاوة ومنسوخها، حيث قال: **«ومحصل ما استفيد منها إن النسخ قد يكون في الحكم كالآيات المنسوخة المثبتة في المصحف وقد يكون في التلاوة مع نسخ حكمها أو من غير نسخ حكمها وقد تقدم في تفسير قوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ البقرة: ١٠٦ وسيأتي في قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ النحل: ١٠١ ان الآيتين أجنبيتان عن الانساء**

---

١. سورة الملك / ٣.

بمعنى نسخ التلاوة وتقدم أيضا في الفصول السابقة ان هذه الروايات مخالفة لصريح الكتاب »[1].

إذاً إنّ نسخ التلاوة يعني نسخ تلاوة الآية دون حكمها الذي وصل الينا عن طريق الروايات، وهذا الأمر قد صرّحت به مجموعة من أصحاب الحديث والأُصوليّين من أهل السُّنة والجماعة، وهم يقولون بنسخ تلاوة بعض الآيات دون حكمها؛ كآية عشر رضعات، وآية الرجم (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم)[2]، وآيات أُخرى من هذا القبيل.

١٠. الإعجاز العلمي للقرآن

هناك بعض المسائل العلميّة التي لم يعرفها الإنسان ولم يكتشفها قبل نزول القرآن الكريم، ولكن بعد نزوله على رسول الله ﷺ طرحها وبيّنها وفصّلها حتّى أصبحت من الواضحات والمسلّمات؛ كلقاح الأشجار، وأنّ فيها ذكراً وأُنثى، ودوران الأرض والقمر، وحركة الشمس... إلخ.

---

١. الميزان في تفسير القرآن، ج١٢، ص١٣٣.

٢. كنز العمال ٢ / ٥٦٧.

لقد كشفت الآيات القرآنيّة الكثير من الحقائق عن أسرار هذا العالم وما يحيط به من كواكب وأفلاك ومجرّات، وقد توصل الإنسان إلى بعضها واطّلع عليها، إلاّ أنّ هناك أسراراً أخرى لم يتوصل إليها العلماء والمفكّرون بعدُ، ولم يعرف كنهها المفسرون إلى يومنا هذا.

١١. مؤلفه امّي

من أهمّ خصائص القرآن الكريم هي أنّ مَن جاء به لم يكن يقرأ أو يكتب أو يحضر درسَ أحدٍ أبداً، وإنّما كان رجلاً أُمّيّاً بصريح قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾[١]. فهل رأى أحد منّا كتاباً قد ألّفه رجل أُمّي حتّى لو كان هذا الكتاب قصةً بسيطةً لا تتجاوز العشر صفحات؟

الجواب: كلاّ؛ لأنّ الكتابة والتأليف منتفيان عن هذا الإنسان الأُمّي، بينما نجد أنّ القرآن الكريم بأجزائه الثلاثين المختلفة قد أتى به مَن لم يذهب إلى المدرسة إطلاقاً، ولم يتعلّم عند أحدٍ بتاتاً، الأمر الذي يتبيّن معه أنّ هذا الكتاب هو كتاب إلهي نُزّل على قلب الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله؛ إذ لا

١. سورة الأعراف / ١٥٧.

يمكن لنبيٍّ لم يقرأ علوم زمانه أن يقول: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[1]، أو ينقل لنا بعض المواضيع العلميّة ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2]، أو يخبر عن الغيب ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[3]، أو يبيّن أسرار هذا الكون الغريبة والمختلفة، بحيث أعطى مساحة واسعة في بيان وجوه الإعجاز القرآني، وبالأخص بما يرتبط بالإعجاز العلمي من خلال كشف الأسرار الكونية وبيان المعارف العلمية، بما يساعد على غلق جميع الأبواب أمام المشككين بوحيانية القرآن وبمصداقية الرسالة المحمدية، بل أعطى ضمانات لصحة النتائج العلمية المطابقة للقرآن بنحو القطع، وذلك نظراً لقطعية ومصداقية وحيانية القرآن، فضلاً عن منحه للعقل فسحة في التدبر والتفكير في الآيات الأنفسية والآفاقية قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي

---

١. سورة الحجر / ٢٢.

٢. سورة يس / ٤٠.

٣. سورة الأنعام / ٥٩.

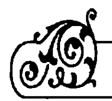
أنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[1]فكان لهذا الأمر أثر كبير في تقوية إيمان المؤمنين، ودفع الفتن التي ألبسها الإلحاد ثوب العلم.

إنَّ الذين عاشوا في تلك الحقبة الزمنيّة، وبسبب جهلهم وتخلفهم الحضاري، لم يستطيعوا أن يدركوا مسألة الوحي بالنسبة للرسول الكريمﷺ والعلاقة الغيبيّة بينه وبين ربِّه (عزَّ وجلّ)؛ لذا بدؤوا يتخبطون في غيِّهم وضلالتهم، فتارة يقولون بأنّ آيات القرآن الكريم إنّما هي ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[2]، وتارة أُخرى يقولون عن الرسول الكريم ﷺ [والعياذ بالله]: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾[3]، أو كانوا يتّهمونه بالسحر وأشياء أُخرى هو في منأى عنها.

١٢. مؤلفه بدون مستشار

من عادة المؤلِف أن يعرض كتابه ومؤلَّفه على أُناس يطمئن لذوقهم وفكرهم، ويستشير ذوي الاختصاص منهم؛ لكي يستفيد من آرائهم ومقترحاتهم بخصوص زيادة موضوع أو نقصانه، أو تبديل مفردة أو بيت

١ ـ سورة فصلت / ٥٣.
٢. سورة الفرقان / ٥.
٣. سورة القلم / ٥١.



شعر... إلخ، لكن الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لم يكن معه أيٌّ مستشار يستعين به على كتابة هذا القرآن، بل لم ينقل لنا التاريخ أبداً أنّ الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قد استشار أحداً في إتيان آية ما، أو أنّ موضعها مناسب في هذه السورة أو لا، أو أنّ وقتها ينسجم مع وضع المسلمين آنذاك أو لا... إلخ.

١٣. الأخبار الغيبيّة

إنّ في القرآن الكريم آياتٍ تحدّثت عن أخبار سابقة وقعت في عصور منصرمة لم يطّلع عليها أحد ولم يثبتها التاريخ آنذاك، وتحدّثت أيضاً عن أُمور وقضايا لم تحدث ولم تتحقق إلاّ بعد عشرات السنين، كقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[١]، فإنّ هذا الأمر كان غيبياً صرفاً لم يتسنَ لأحد معرفته، وقد حدث لاحقاً فيما بعدُ. وغيرها الكثير من الإخبارات الغيبيّة التي لم تتحقق حتّى الآن.

---

١. سورة الروم / ٢ ـ ٣.

١٤. كثرة وتنوع المواضيع

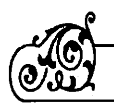
من القضايا المسلَّمة في فنٍّ الكتابة والتأليف أنّ الكاتب لابدّ وأن يبحث في موضوع خاص لا يمكن أن يتعدّاه أو يتجاوزه إلاّ نادراً؛ حيث يتحدث حول موضوعه بإسهاب وتوئدة، ويأتي بالشواهد والأمثال المختلفة، والقصائد والقصص المتنوعة... إلخ، لكن القرآن الكريم قد تناول بين دفّتيه الكثير من المواضيع المختلفة، وأثار أسئلة متعددة ربما لا يوجد فيما بينها أيٌّ ترابط واتصال.

وقد أشار القرآن الكريم إلى مجموعة من أسئلة المسلمين آنذاك، فتارة كانوا يسألون الرسول الأكرم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ عن الخمر والميسر، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[1].

في زمن السيد البروجردي قُدِّسَ سِرُّهُ كانت هناك جمعية تطلق على نفسها «تصديقات أخلاقي» (التصديق الأخلاقي) أو «جمعيت إصلاح وتربيت» (جمعية الإصلاح والتربية)، وكانت بين الفَينة والأُخرى تزور السيد وتسأله عن مسائل مختلفة. هذه الجمعية أو المؤسسة كانت ترفض الخمر

---

١ سورة البقرة / ٢١٩.



إلاّ القليل منه، والمخدرات بأنواعها، والقمار بأشكاله. وذات يوم سألوا السيد البروجردي سؤالاً مهمّاً، وهو: أنتم تقولون: إنّه لو سقطت قطرة واحدة من خمر في زجاجة ماء فسوف يحرم هذا الماء. فما العلة في ذلك؟!

فأجابهم السيد: أنا لا أعلم فلسفة وحكمة الأحكام، ويمكنكم أن تسألوا السيد الطباطبائي عن سرٍّ ذلك، لكن أقول لكم إجمالاً: إنَّ هناك أشياءَ حُرِّمت «ضرباً للقانون»، فمن الناحية العلميّة ربما لا تؤثّر هذه القطرة من الخمر أبداً، ولم تكن مسكرةً قطعاً، لكن لأجل المحافظة على قدسية الأحكام الشرعيّة، ولا يكون هناك أيُّ تساهل فيها فقد حُرِّمت حتّى هذه القطرة من الخمر.

بعد فترة من الزمن صرّح أعضاء هذه الجمعية بأنّهم قد اقتنعوا بجواب السيد البروجردي قدس سره والتزموا به.

وتارة يسألونه صلى الله عليه وآله عن قضايا متعددة، وهذا ما أشار إليه تعالى في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[1] أو ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾[2] أو ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَهِلَّةِ﴾[1] أو ﴿يَسْأَلُونَكَ

---

١. سورة الإسراء / ٨٥

٢. سورة النازعات / ٤٢.

عَنْ الأَنْفَالِ﴾[2] أو ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾[3] أو ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنْ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾[4]... إلخ.

إذاً كان الناس يسألون الرسول صلى الله عليه وآله عن الروح، القيامة، الهلال والشهور، الأنفال، ماذا ينفقون، وأسئلة كثيرة أُخرى، وكان صلى الله عليه وآله يجيب كلَّ واحد منهم بحسبه.

وكما هو معروف عند عامّة الناس أنَّ الذي يجيب عن أيٍّ سؤال يوجّه إليه بأنّه يعرض نفسه للخطأ والاشتباه عادة، لكن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله حينما كان يجيب عن هذه الأسئلة جميعها فإنّه مصون عن ذلك، بل يدل على اتصاله وارتباطه بالوحي مباشرة؛ لأنّه لا يمكنه الإجابة عنها دون الاستعانة بالوحي والسماء.

---

١. سورة البقرة / ١٨٩.

٢. سورة الأنفال / ١.

٣. سورة البقرة / ٢١٥.

٤. سورة النبأ / ١ ـ ٢.

١٥. وحدة التأثير في الجزء والكل

من الخصوصيّات الرائعة والعجيبة للقرآن الكريم هي أنَّ تأثير الجزء فيه مع كلّه واحد. فحينما نقرأ كتاباً ما فإنَّ الفصل الأول منه نجده يبيّن شيئاً معيّناً والفصول الأُخرى تبيّن أشياء أُخرى، ولا يمكن القول بأنّنا لو قرأنا الفصل الأول فكأنما قد قرأنا الكتاب كلَّه، لكن في القرآن الكريم نجد أنَّ هذا الأمر مختلفٌ تماماً عن سائر الكتب الأُخرى؛ فأثر سورة البقرة أو سورة آل عمران مثلاً يعدل أثر القرآن كلّه.

في الصدر الأول من الإسلام لم يكن القرآن الكريم بمجموعه موجوداً بين يدي كلِّ فرد من أفراد المسلمين؛ لأنّه لم تكن هناك مطابع كبرى يمكن من خلالها طباعة القرآن وتوزيعه ونشره كما هو الحال في وقتنا الحاضر، وإنّما كانت عند البعض منهم سورة واحدة أو سورتان، وعند البعض الآخر جزء واحد أو جزءان، وهكذا، فكان هذا القدر الموجود من القرآن يكفيهم في القراءة والتدبّر. وعليه فمَن منّا رأى كتاباً آخر يكون فيه تأثير الجزء منه والكلِّ واحد؟!

كان عند أبي قرآن في مجلدين؛ المجلد الأول يبدأ من سورة الحمد وينتهي إلى سورة الكهف، والمجلد الثاني يبدأ منها إلى آخر القرآن.

هذان المجلدان كانا ذا قيمة عالية جداً؛ فجلدهما مزخرف وورقه رائع، وعلى قماشه كُتب اسم القرآن بماء الذهب.

وفي يوم من الأيام جاء أحد أبناء العامّة إلى والدي وطلب منه أن يبيعه هذا المصحفَ، لكنّ والدي رفض رفضاً قاطعاً وامتنع عن ذلك، فقال له الرجل: إذا أصبحتُ شيعيّاً فهل تعطيني هذا القرآن؟ وبما أنّ والدي كان متديناً كثيراً وتهمّه مصلحة المذهب وافق على إعطائه مجلداً واحداً، أي نصف القرآن، فاستبصر الرجل وقرأ الشهادة الثالثة ـ ولا أعلم حينها هل قرأها عن صدق أو كذب ـ ولمّا سُئل والدي عن النصف الثاني وماذا ينفعه، أجابهم بإنّه لا يوجد فرق بين نصف القرآن وكلِّه. وبقي هذا النصف من القرآن عندي إلى أن أهديته إلى مكتبة الإمام الرضا (عليه السّلام).

وهنا قد يُطرح هذا السؤال، وهو: إذا لم يكن هناك أيُّ فرق بين نصف القرآن وكلِّه، إذاً ما الفائدة من نزول جميع هذه السور والآيات، فقد كان يكفي نزول بعضها أو جزء منها؟

الجواب: إنَّ المقصود هنا وحدة الأثر أو التأثير، أي أنَّ الآية الواحدة ربما تعدل أثر القرآن كلِّه في الهداية والتربية، وهذا ما قرأناه في التأريخ من أنّ البعض قد تأثّر عند سماعه لآية واحدة من القرآن الكريم، فكانت سبباً لهدايته ونجاته.

يروى أنَّ الفضيل بن عياض كان في أول أمره يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنّه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدران إليها سمع تالياً يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾[1]. فقال: يا ربِّ قد آن. فرجع وتاب من حينها وصار من كبار السادات وأهل الحديث في الكوفة، ثم انتقل إلى مكّة وجاور بها الحرم إلى أن مات في المحرم سنة ١٨٧ هـ وقبره بها[2].

طبعاً نحن لا ننكر المعاني المختلفة الموجودة في كلِّ سورة من سور القرآن الكريم، بل نعرف قدرة الله تعالى وعظمته، والأنبياء والملائكة عليهم السلام، والحساب والقيامة، والأحكام العباديّة والمسائل الاجتماعيّة... إلخ في النصف الثاني من القرآن كما نعرفها في النصف الأول منه. وواضح أنّ مَن لم يقرأ سورة من القرآن الكريم فقد فاته بقدرها الكثير من علوم القرآن ومعارفه، لكن نقول: إنَّ الآثار التربويّة موجودة في كلِّ آية من آيات القرآن حتّى وإن كانت منفصلة عن بعضها البعض في السورة نفسها.

---

١ . سورة الحديد / ١٦.

٢ . حاشية رد المحتار ـ ابن عابدين ١ / ٦٢.

الهداية هي روح القرآن

ما هي روح القرآن؟ أي شيء هذا الذي يجري ويسري في جميع أجزاء القرآن الكريم؛ في سوره، في آياته، في كلِّ كلماته وحروفه ويعطيها الحياة، المعنى، الانسجام والترابط؟

حينما يمسك الكاتب الحاذق بيده القلم ويبدأ بالكتابة فإنّ هناك الكثير من القضايا كالنيّة والدافع والغرض التي ستتجلى أمامه؛ لتشكّل بدورها هدفاً ومحوراً أساساً لبحثه.

وهذه القضايا هي التي تعتبر العلّة الغائيّة، أي التصوّر الذي يكون متقدّماً ثمَّ يتبعه بعد ذلك التحقق والوجود الذي يكون متأخراً عنه.

وعليه فليس المهم هو موضوع الكتاب وما دار عليه البحث، بل المهم هو محتوى الكتاب وروحه؛ لأنّهما المتغيران وفي حالة تطور دائم ونمو مستمر.

وفى الدر المنظم: «إعلم أن جميع أسرار الكتب السماوية في القرآن، وجميع ما في القرآن في الفاتحة، وجميع ما في الفاتحة في البسملة، وجميع ما في البسملة في باء البسملة، وجميع ما في باء البسملة في

النقطة التي هي تحت الباء. قال الإمام علي (كرم الله وجهه): أنا النقطة التي تحت الباء»[١].

ما عدا الجملة الأخيرة فإنّ كلمات الحديث ناظرة إلى المعنى الذي أشرنا إليه، أي أنّ جميع ما في القرآن الكريم هو في (روح القرآن) الذي هو أمر بسيط، بمعنى أنّه لا جزء له، وأمّا الجملة الأخيرة فإنّها تشير إلى أنّ روح القرآن هي الهداية، وهذه الهداية متجسّدة في شخصه عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٢]، قال النبي صلى الله عليه وآله «أنا المنذر وعلي الهادي بك يا علي يهتدي المهتدون»[٣].

وهذا المعنى يؤكّده ما جاء في تفسير هذه الآية المباركة ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾[٤] من أنّه عليه السلام قال: «أنا قسطاس الله»[٥].

أمّا السبب الرئيس والعلّة الغائيّة من نزول القرآن الكريم ما هي؛ فالقرآن نفسه يجيب عن هذا التساؤل:

---

١. نقلاً عن: ينابيع المودة، ج١، ص٢١٣؛ مستدرك سفية البحار، ج١، ص ٢٧٠.

٢. سورة اللرعد/ ٧.

٣. أعيان الشيعة، ج٥، ص٥٥.

٤. سورة الإسراء / ٣٥.

٥. مستدرك سفينة البحار، ج٨ ص٥٢٣.

١. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[١].

٢. قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[٢].

٣. قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾[٣].

٤. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٤].

٥. قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾[٥].

ومن خلال إلقاء نظرة عامة على هذه الآيات القرآنيّة ندرك بأنّ العلّة الغائيّة والهدف السامي من نزول القرآن هو الهداية، وهذه الهداية لجميع الناس دون استثناء.

* ما هو أساس الهداية في القرآن؟

* كيف تكون هداية الله سبحانه وتعالى للإنسان؟

---

١. سورة البقرة/ ٣٥.

٢. سورة الشوري / ٥٢.

٣. سورة البقرة / ٢٦.

٤. سورة الإسراء / ٩.

٥. سورة المائدة/ ١٥ ـ ١٦.

* ما هو الشيء الذي يريد أن يبيّنه القرآن الكريم للإنسان لكي يهتدي به؟

إنّ أساس الهداية في القرآن الكريم هو المعرفة، وهذه المعرفة لها ثلاثة مبادئ:

١. معرفة الله تعالى

٢. معرفة الإنسان

٣. معرفة الكون

وقد رُسمت هذه المبادئ الثلاثة ضمن محاور ستة، ونُظّمت كالتالي:

١ ـ (الله ـ الإنسان)

في هذا المحور تكون علاقة الله سبحانه وتعالى مع الإنسان من الناحية التكوينيّة والتشريعيّة.

٢ ـ (الإنسان ـ الله)

أمّا في هذا المحور فتكون العلاقة معاكسة تماماً لما في المحور السابق؛ حيث علاقة الإنسان مع الله وما يحتاج إليه من الناحية الطبيعيّة، النفسيّة، الشرعيّة، الأخلاقيّة، العباديّة... إلخ.

٣ ـ (الله ـ الكون)

في هذه العلاقة تكون إرادة الله سبحانه وتعالى نافذة في هذا العالم من الناحية التكوينيّة، التشريعيّة، الدنيويّة، الأُخرويّة، المعنويّة أو الماديّة المتعلّقة بالماضي أو المستقبل أو الوقت الحاضر.

٤ ـ (الكون ـ الله)

في هذا المحور تكون علاقة هذا الكون مع الله تعالى هي الموجودة، أو التي يجب أن تكون هي المقصودة.

٥ ـ (الإنسان ـ الكون)

في هذا المحور تكون العلاقة هي المستمدة من هذا الكون؛ سواء كانت موجودة أم التي يجب أن تكون.

٦ ـ (الكون ـ الإنسان)

في هذا المحور تكون العلاقة شاملة؛ سواء كانت موجودة أم التي يجب أن تكون للكون مع الإنسان.

هذه ثلاثة أُسس ومبادئ وستّة محاور، وهي منظومة كاملة للمعرفة قد طرحها القرآن الكريم، وهي أساس الهداية القرآنيّة.

في نهاية هذا البحث نحاول أن نشير إلى حديثٍ واحدٍ للإمام الصادق عليه السلام يناسب ما ذكرناه، حيث قال (سلام الله عليه): «وجدتُ علمَ النّاس كلَّه في أربع: أوّلها أن تعرف ربَّك، والثاني أن تعرف ما صُنع

بك، والثالث أن تعرف ما أراد منك، والرابع أن تعرف ما يُخرجك من دينك»[١].

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسّلام على محمّد وآله الطاهرين

١. الكافي ـ الشيخ الكليني ١ / ٥٠.

محتويات الكتاب